استراتيجية إصلاح التعليم في العالم العربي والإسلامي
مدخل نظري و ملمح مستقبلي في القرن الخامس عشر الهجري

الأستاذ حسين لوشن
قسم علم الاجتماع. جامعة الحاج لخضر باتنة

مقدمـــــة

نموذج البحث القائم حول دراسة موضوع من هذا القبيل، في الأصل انتقيناه لكونه نابعا من إيماننا بفكرة أن الباحث في أي مجال كان... وخصوصا الباحث الذي ينتمي إلى الأمة الإسلامية روحا وعقلا و لسانا ووجدانا و عقيدة و مصيرا، ولذلك فهو مطالب أن:

- يمجد ماضيها الحي القريب و البعيد
- يعيش حاضرها أو بالأحرى واقعيا بكل تغيراته
- يتفاعل مع الأحداث التي تجري وتمر بها
- يعتز بالانتصارات التي حققتها وستحرزها
- يتأثر لما أصابها من اضطرابات وسجلته من إخفاقات
- يقف اليوم وقبل أي وقت مضى لمساعدتها على مواجهة التحديات المفروضة عليها
- يتطلع دائما لطموحاتها وافاقها المستقبلية...الخ

مطالب حضارية كهذه ، تتفق ضمنيا مع التوجيهات الكبرى للإصلاح، باعتبار أن الأمة الإسلامية حاليا، هي في أمس الحاجة كي يلتف حولها أبناؤها من العلماء والباحثين والخبراء وأصحاب القرار...في الداخل و الخارج، كون المرحلة التي تمر بها، تستدعي توحد وتماسك الجميع ،إضافة إلى تكثيف الجهود وتنويع الخدمة، والعمل على اصلاح واقعها القائم، سيما في مجال التعليم بكل أصنافه ومستوياته.

مثل هذه الإشارات الوجيهة، تجعلنا نعمق النظر في تاريخ العالم العربي والإسلامي، حيث أحدث فيه الإسلام النقلة النوعية في حياة الناس، نظرا لما يحمله من قيم دينية وتعليمية وعلمية وعملية، وبانتشاره الواسع في أنحاء البلاد

الإسلامية، ومن ضمنها البلاد العربية ،هذه الأخيرة التي تشكل نقطة البداية والتحول في تاريخ هذا العالم بالذات وهو العالم الإسلامي، سيما التاريخ الهجري الذي يقدر مداه الزمني بأكثر من أربعة عشر قرنا .

"ومادام الإسلام هو القاسم المشترك بين البلدان العربية و البلدان الإسلامية، ،مع أن هذه المجتمعات تكون في النهاية عالما واحدا، يطلق عليه بـ:العالم الإسلامي، فإنه في هذه الحالة وحسب تصورنا يظل الإسلام يشكل الوثاق المتين ،والجسر الحصين،قياسا بمحافظة على النسيج :الأخلاقي والديني والتربوي والتعليمي والاقتصادي والثقافي والحضاري والاجتماعي...،كما جعل مجموعة هذه البلدان متقاطع ومتوافق فيما بينها في مجالات الحياة المختلفة.

ان طرحا كهذا، الهدف منه تجذير للوجود وإثبات القدرة على التطور والتقدم، وهي قيم تتكامل مع الإسلام وتعاليمه، وتقود إلى إبراز الهوية، التي لا يمكن أن تنقطع امتداداتها، مادامت شعوب العالم العربي والإسلامي تتمسك بالعقيدة الإسلامية، وتعمل بعزم الإرادة الجماعية، على حفظها وصيانتها من الشوائب والتحريف، ونقلها صحيحة إلى الأجيال الجديدة، مع الحرص على تعليمها وتكوينها وإصلاح شؤون دينها ودنياها، لتكون خير خلف لخير سلف.

حين الرجوع إلى القرون الأولى من التاريخ الهجري للعالم العربي والإسلامي، وبفضل ما توفر عليه وقتها من أسباب القوة، إلى جانب وجود مقومات: تاريخية وتربوية وتعليمية وفنية وثقافية و حضارية... تركت معها الأجيال السابقة ، ونخص بالذكر السلف والخلف الصالح، بصمات خالدة في مسار التراكمات التراثية، وتحديدا في مجال التربية والتعليم.

إقتداء بالمدرسة المحمدية التي أدت دورا عظيما في شأن التعليم، بدليل أن أولى آيات الوحي الإلهي التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(1)، وقد تمت الاستجابة لهذه الدعوة في تعلم القراءة وطلب العلم، فكان للعرب والمسلمين آنذاك شأن كبير، نظرا لصلاح أحوالهم وتطور التعليم على أيديهم، كما تصدروا طليعة شعوب العوالم الأخرى في ذلك الزمان.

واضح أن سجل العرب والمسلمين على امتداد التاريخ الهجري، حافل بالأمجاد والدروس في ميادين كثيرة، ومنها على وجه الخصوص ميدان التعليم، وبالمقابل تعرضت بلدان العالم العربي الإسلامي الى نكبات أو أزمات متفاوتة الدرجات،

عطلت من جهتها وتيرة نمو هذه المجتمعات، مما جعلها تمثل حضورا لا نعده قويا في الإبداعات التربوية والتعليمية على مدى فترات القرن الرابع عشر الهجري الماضي..

وتجردا من الذاتية والتصور الضيق، نقول أن العرب والمسلمين في القرون الهجرية الأخيرة، كان إسهامهم ضئيلا ومتواضعا في حركة التطور التعليمي والعلمي والتكنولوجي و المعلوماتي، مقارنة بما أبدعته واخترعته شعوب العالم الغربي.

مادمنا انطلقنا من الإسلام لإثبات خصوصية الهوية، **والتعليم** لإعادة المجد و القوة للأمة الإسلامية، فإن الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري، يستشعر كل عربي ومسلم للوقوف أمام الذات، وذلك قصد المراجعة الجذرية لهذه الذات، ثم العمل الجاد على إصلاح أحوالها: الروحية والنفسية والسلوكية والمادية...، و بعد كهذا لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل مشروع إصلاحي تعليمي متكامل ورائد، يقود العالم العربي والإسلامي تدريجيا، لتتملك بلدانه من جديد أسباب وأدوات النجاح والتقدم.

أولا: المدخل النظري في الاصلاح

ظاهرة الإصلاح في العالم العربي والإسلامي ليست وليدة الساعة، بل لها خصوصيتها التاريخية والدينية والحضارية ... وحتى العلمية، وتحديدا تبدا العملية الإصلاحية الكبرى والشاملة مع مجيء المصطفى عليه الصلاة والسلام، خير البشرية وهاديها ومصلحها الأول، ومنذ ذلك العهد وفترة استمرت إلى ما يقارب أربعة قرون من التاريخ الهجري، والحياة داخل البلاد العربية والإسلامية تعرف تطورا يوما بعد يوم، إلى أن بدأ عهد التراجع وقيام الحروب الصليبية، ثم تلتها أشكال الاحتلال والهيمنة الغربية، فاضطربت معها أحوال العرب والمسلمين في مناحي كثيرة، ومنها **حياة التعليم** بصورة عامة.

ونتيجة للفساد والضعف الذي دب في جسم الأمة الإسلامية، لقد ظهرت إلى الوجود مدرسة الإصلاح التي أدت دورها على مستوى المجتمعات التي يضمها العالم العربي والإسلامي، منذ بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، وتعاقبت عليها ثلاثة أجيال من السلف والخلف الصالح، وأيا مد إصلاحي حتى الوقت الحالي.

الشيء الذي يستوجب الذكر، أن جهود رجال الإصلاح من: مفكرين وأعلام ومربين وسياسيين... وسع تنوع مشاربهم وأوطانهم، قد تركزت جهودهم الإصلاحية في القضايا المهمة الآتية:

1- قضية إصلاح الإنسان

يعتبر الانسان جوهر الإصلاح، وباكتمال قواه يتحقق كل مبتغى من العمل الاصلاحي، وبشأنه يقول الشيخ **عبد الحميد بن باديس... صلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية موجهة كلها إلى إصلاح النفوس، اما مباشرة واما بواسطة. فتكميل النفس هو أعظم المقصود من انزال الكتب وارسال الرسل وشرع الشرائع(2)**، وخاصة عند الانسان العربي والمسلم.

2- قضية إصلاح الدين:

يعد الدين أساس كل إصلاح، لأنه ما صلحت دنيا بلا صلاح دين، وفي هذا المقام يقول الشيخ **محمد عبده: إذا سلمت العقائد من البدع، تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب، واستقامت أحوال الأفراد، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة (3)** والمقصود هنا الدين الإسلامي.

3- قضية إصلاح التربية:

تمثل التربية منهج الإصلاح، ووعاء يشمل كل فكر وعمل موجه لاصلاح حياة الناس، وفيها يقول الشيخ **محمد قطب... هي منهج متكامل لا يترك صغيرة ولا كبيرة، يشمل النفس الإنسانية بحذافيرها، ويشمل الحياة البشرية بالتفصيل. فقد كان من أثره تلك الامة التي غدت تعمر وتبني، وتقيم مثلا اخلاقية وانسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد، ونشر النور والهدى، وتنشئ الحياة بإذن ربها من جديد، فكانت أمة فريدة في التاريخ(4)**، وهذا المنهج مستوحى من التربية الإسلامية.

4- قضية إصلاح التعليم

يشكل التعليم محور الاصلاح، ونظرا للقيمة الكبيرة التي يكتسيها عند بعض المصلحين، ومن بينهم الشيخ **محمد البشير الابراهيمي** الذي يقول بشأنه ... ان

التعليم عند الامم التي عرفت الحياة معدود في المقومات ... ولأنه راس مال الأمة، وذخيرة الوطن (5)، والمقومات هي:

- الإرادة الجماعية في التعليم
- الأخلاق الفاضلة في التعليم
- الإيمان بهوية ورسالة التعليم
- العلم النافع للتعليم
- العمل الصالح في مجال التعليم
- الإبداع في العلوم والصنائع كمخرجات للتعليم
- التحضر في ممارسة التعليم
- التفاعل والتبادل المجدي في التعليم
- التحدي الذي لا يرفع الا بالتعليم

وكل هذه المقومات وغيرها، ليست بمنأى أن يمتلكها الإنسان المسلم، لأنها مرتبطة ومستمدة من روح ومنهج العقيدة والتربية الإسلامية، وممتدة في الوقت نفسه إلى التعليم الذي أخذت به المدرسة المحمدية، التي حفظت مقوماته وتمكنت بواسطته أن تبني نموذج المجتمع الأول في الإسلام، الذي ارتقى فيما بعد الى مرتبة الأمة الإسلامية.

وإذا كان التعليم رأس مال نهضة وقوة الأمة الإسلامية، فإنه في العالم العربي والإسلامي المعاصر، الذي اقتربت شعوبه لتعيش نهاية الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري، اصبح يتطلب إصلاحا نوعيا بالدرجة الأولى، تعرض مساراته للتطورات الجديدة، ويتحقق ذلك على مستوى العناصر التي تحكمه وهي:

- النظم التعليمية بجميع اصنافها
- الخطط التعليمية قصيرة ومتوسطة وطويلة المدى
- المناهج التربوية والتعليمية بكل فلسفاتها وتصوراتها
- البرامج التعليمية بمختلف محتوياتها
- الطرائق التعليمية بجميع بيداغوجياتها
- الوسائل التعليمية بكل تقنياتها واستخداماتها

نفهم أن التعليم نسق مركب ومتكامل، وقضية إصلاحه جاءت من الخلل الذي حل به كنسق، نتيجة عدة داخلية وخارجية محيطة به، لذلك أصبحت تطرح نفسها على

كافة الأطراف المعنية والمشاركة في العالم العربي والإسلامي، وتبعا لما اثبتته التجارب المجتمعية العربية والإسلامية السابقة، والاعمال الفكرية والعلمية، والمساهمات الجماعية والفردية .....، أن الإصلاح المفضل فيما في المستقبل القريب من هذا القرن، وذلك انطلاقا من واقع التعليم السائد في هذه البلدان، هو ذلك الإصلاح الشامل والجوهري، الذي يجب أن يمس جل المكونات الحيوية المشار إليها آنفا، والإجراءات التنظيمية والفنية،والأدوات الملموسة....، التي تتوقف عليها العمليات التعليمية في جميع مراحله من أول إلى آخر مرحلة وهي:

- مرحلة التعليم القرآني
- مرحلة التعليم التحضيري
- مرحلة التعليم الابتدائي، أو التعليم الأساسي في الطور الأول والثاني
- مرحلة التعليم المتوسط، أو التعليم الأساسي في الطور الثالث
- مرحلة التعليم الثانوي العام والتقني والمهني
- مرحلة التعليم العالي بكل فروعه وتخصصاته.

إن توجها كهذا، يملي نظريا تعيين المقومات والأهداف، التي يقوم عليها نموذج إصلاح التعليم، وحتى يصبح مسلك الإصلاح سليما، لابد أن تسلم المقاصد والأفكار والأعمال.....، وان تتضافر جهود الخبرة من: العلماء والباحثين و الخبراء وأصحاب القرار.... ممن يؤمنون بحقيقة : أنه في إصلاح التعليم، يمكن لمجتمع الأمة العربية والإسلامية مع الوقت، أن يحدث انطلاقة فعلية وقوية في القرن الخامس عشر الهجري، وعند هذا المستوى من التحليل تتحدد قيمة الإصلاح في التعليم من الناحية النظرية، وهذا اتفاقا مع ما يمليه منطق العلم دينيا وتنمويا واجتماعيا.

ثانيا: استراتيجية اصلاح التعليم

للإشارة أن مكانة التعليم واهميته، تزداد أكثر كلما وضع في إطار استراتيجية واضحة المعالم ومتكاملة الجوانب، لهذا لا يمكن النظر إليه على أنه أداة عرضية أو حاجة ظرفية، تنتهي بمجرد تحقيق منفعة معنوية أو مادية، بل هو مفتاح كل تنمية وتقدم، وبالتالي لا بديل للعالم العربي والإسلامي كي يستغني عنه بسهولة، بل لا بد أن يوضع من بين الخيارات الاستراتيجية التي تأتي على رأس نهضة الامة.

التي ينتظر أن تقودها بحسب الملمح المستقبلي بداية من الربع الثاني أو النصف الثاني كمدى معقول للانطلاقة الصحيحة من القرن الخامس عشر الهجري.

مادام التعليم مرتبط بتطور تاريخ البلدان العربية والإسلامية، فإنه في هذه الحالة كان ولا زال المكسب الثمين، والهدف الرئيسي للتغيير والتطوير في أن واحد، شريطة إحاطته بالعناية والمتابعة المتواصلة في سياق الاستراتيجية التي تخص إصلاحه، مع مراعاة توافقها مع قيمته التي حددها الإسلام، بمعنى مصممة بدقة وتحكمها المبادئ والقيم والخيارات النابعة من العقيدة والتربية الإسلامية.

تطرق العديد من المفكرين وكبار المربين والخبراء المتخصصين في العالم الإسلامي، إلى نوع الاستراتيجية التي تليق بإصلاح التعليم، وتقاربت تصوراتهم حول فكرة أنها توضع وتتحرك في إطارين متكاملين ومستمرين مع بعضهما هما:

1-الإطار الشامل لاستراتيجية إصلاح التعليم

الشمولية كخيار لإصلاح التعليم، مسلمة لا تتعارض مع المنظور الإسلامي المعتدل والمتوازن، كون الأخذ بالتعليم كمدخل استراتيجي من داخل هذا الإطار، الذي تبقى تشرف على تنميته وتجويده كما هو متوقع حاضرا ومستقبلا، وبصفة تدريجية إرادة وعزيمة جميع المسلمين في كافة أنحاء المعمورة، وخاصة في العالم العربي و الإسلامي، مع ضرورة الوصول أو الارتقاء به إلى مستوى عظمة الأمة الإسلامية، التي وصفها الله عز وجل في قوله: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(6)** وهذا تشريف وتكريم منه سبحانه وتعالى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، التي اختارت بفضل مرشدها منذ البداية طريق العلم كمنهج لها في الحياة، فوصلت إلى أعلى مراتب التطور والتقدم.

ولأجل الحفاظ على رسالة العلم كما أقرها الإسلام، وطلبه الذي لا يتم إلا عن طريق الخيار السليم في التعليم، كان لابد على بلدان العالم العربي والإسلامي أن توحد جهودها وتستثمر إمكاناتها، في سبيل إصلاح التعليم حتى يثمر في مجالات الحياة المختلفة.

ومثل هذا التوجه،الذي يرتكز على الخيارات الكبرى للأمة، هو ما جعل الكثير من المحللين والمنظرين والمتخصصين في شؤون التعليم بالبلاد العربية والإسلامية، أنه لا مخرج للأمة الإسلامية سوى أن تستخدم تراثها وموارداها، وتستغلها حاليا على النحو الذي يمكنها من النهوض والتطور .

بخصوص نهضة المسلمين يرى الأستاذ محمود أحمد شوق... انه ينبغي على مجتمع الأمة الإسلامية، أن يستنفذ طاقاته في الارتقاء بطرائق الحياة فيه. وصولا إلى أن يتبوأ مكانه ليكون خير أمة. وهذا على أساس طلب العلم، والعمل الدؤوب، والوقاية من المشكلات (7). والتاريخ العربي والإسلامي مليء بالشواهد الحية، التي تؤكد وتستشعر شعوب هذا العالم، نحو رفع التحدي المفروض على واقعها الراهن. والذي لا يتحقق الا بواسطة استغلال الإدارة الجماعية والعلم الصحيح والعمل النافع، وجميعها من أغنى المقومات التي يتوفر عليها المجتمع الإسلامي. والتي يجب أن يغذيها التعليم الجيد في كل ما يشتمل عليه من مكونات.

إن امتلاك القدرة على إصلاح التعليم، وتوجيهه نحو خدمة الأمة الإسلامية والعكس صحيح، أمر في غاية الأهمية حاليا وفي المستقبل القريب. لذا فالعالم الإسلامي المعاصر، مطالب بوضع استراتيجية شاملة في مجال التربية والتعليم. وفي هذا الصدد يذهب المفكر زغلول راغب النجار إلى القول... أن استراتيجية التربية الإسلامية لكي تقوم بدورها، لابد أن تكون شاملة، وطويلة المدى بدرجة معقولة، وعلى قدر من المرونة، ومضبوطة ضبطا دقيقا، وديناميكية تأخذ بعين الاعتبار عمليات التطور المبدع والتجدد بصورة مستمرة(8). وفي رؤيته هذه إشارة عميقة مفادها،أن الاستراتيجية الشاملة في حقل التربية والتعليم، تجمع مختلف مقومات المجتمع الذي تقوم عليه الأمة الإسلامية.

واستنادا لهذه الرؤية الواسعة وغيرها، نسلم أن الاستراتيجية ذات الإطار الشامل في إصلاح التعليم، لابد أن تنطلق من تعاليم الإسلام، التي تدعو إلى توثيق الصلة بين المبادئ والأفكار والأعمال، وتقرب الخطط والقرارات من الواقع، وتقود إلى تحقيق الأهداف مستقبلا. كما تجعل من التعليم في كافة مستوياته، يقدم النتائج الإيجابية التي ترتضيها الأمة الإسلامية لنفسها.

2- الإطار الفرعي لإستراتيجية إصلاح التعليم

إن مطلب توحد جهود العرب والمسلمين في اصلاح التعليم داخل الاستراتيجية الشاملة، لا يمنع من حينا لآخر مساعيهم من خلال وضع استراتيجيات فرعية، ينجه فيها كل بلد إلى تصميم إستراتيجية خاصة بالتعليم، تناسب وحجم امكاناته البشرية والمالية والمادية.

لقد حاولت ولازالت تعمل العديد من البلدان العربية والإسلامية، منذ ما يفوق الخمسة عقود من الزمن، على إدخال إصلاحات وتعديلات في مجال التربية والتعليم، ونظرا لعوائق سياسية واقتصادية وتنظيمية واجتماعية...، فاقت من حيث درجة انعكاساتها السلبية، القدرات الحقيقية التي تمتلكها الكثير من هذه البلدان، إضافة إلى غياب نموذج الإستراتيجية الفرعية الناجحة. لقد ادت هذه العوامل مجتمعة بمعظم دول العالم العربي والإسلامي، أن تفقد السيطرة على الواقع التعليمي، الا البعض منها وتحكمها فيه نسبيا من ناحية الكم والنوع.

لا يخفى على احد ان كل بلد في العالم الإسلامي، يواجه في السنوات الاخيرة مشكلات وتحديات متعددة الأوجه، وحتى يسهل مواجهتها والتخفيف من حدة اثارها، وجب العمل على تطوير الاستراتيجيات الفرعية التي تمس **حياة التعليم**، على كافة المستويات ومنها:

- المستوى الاقليمي
- المستوى الوطني
- المستوى الجهوي
- المستوى المحلي

وسوف نستند في هذا السياق، الى التجربة المتواضعة ذات الأبعاد النظرية والواقعية، التي نتجه فيها البلدان العربية إلى تطوير استراتيجية تربوية وتعليم. ونلمس ذلك فيما تقدمه بعض البيانات والمنظمات في الوطن العربي من تقارير حولها، وهي ما تستدعي اهتمام باحثين وخبراء لدراسة العناصر التي تقوم عليها، وحين التركيز على المراجعة التي قدمها **عبد الله عبد الدائم** حولها نجده يذكر... أن لعناصر الاستراتيجية الموضوعية وما ينبثق عنها من توصيات، **على كونها صادقة في الجملة على معظم اقطار الوطن العربي، لابد أن يقوم كل قطر بالمواءمة بينها وبين خصوصية تجربته وخصوصية اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية العامة**(9)، لان البلدان العربية في الشرق والمغرب لا تأتي على خط واحد، فيما يملكه من موارد وخبرة وحتى بالنسبة **للتعليم**.

ونحن نقول انه في مثل هذه الحالة، ان ما ينطبق على الأقطار العربية هو نفس الوضع بالنسبة للأقطار الإسلامية، وعليه يكون من الطبيعي أن يواصل كل بلد عربي وإسلامي، البحث عن انجع الطرق و الأدوات والعناصر، التي تمكنه في

الأخير من التقليل في ضخامة المشكلات التي تعرقل توجهاته الإصلاحية والتنموية في هذا الميدان، شريطة تبادل الخبرات، وتقديم المساعدات، والحرص على المشاركة الجماعية والعمل المتفرد في نفس الوقت، والطموح نحو تحقيق الهدف الذي تصبو إليه جميع شعوب العالم العربي والإسلامي، والمتمثل في اصلاح التعليم وتطويره، وفق استراتيجية لا تخرج عن إطارها الفرعي الذي وضعت لأجله .

ان إصلاح التعليم الذي يتماشى مع العصر، سيما مع بداية الربع الثاني من القرن الخامس عشر الهجري، هو نمط الإصلاح الذي ينخرط شكلا ومضمونا مع الاستراتيجية التي تتعين داخل إطارين متكاملين، أحدهما شاملة تتعلق بتعاون مجتمع الأمة الاسلامية، والثانية فرعية ومنحلة إلى فروع يصدق كل منها على القطر العربي و الإسلامي الذي ينتمي، وذلك بسبب الخصوصية التي يمتاز بها على غيره من الأقطار التي تشكل العالم العربي والاسلامي.

وحتى لا يبقى الإصلاح في المجال التعليمي مجرد أفكار نظرية، وأمل قد يضيع مع تسارع الأحداث وتفاقم المشكلات التي يعيشها المسلمون ، كان من الضروري أن تقوم الأطراف المعنية والجهات القادرة على التأثير الايجابي، بإدخال إصلاحات ملموسة، لتقوية العناصر التي تحكم نوعي الإستراتيجية الشاملة والفرعية، والمحسستين كما هو مفترض للتعليم، الجارية عملياته بالبلاد الإسلامية، واللتان تظهر قيمتيهما نظريا وتطبيقيا فيما يلي:

- بناء النظم التعليمية، والمحافظة على وحدتها في الشكل وتنوعها في المضامين
- رسم الخطط الخاصة بالتعليم، على أساس مجموعة من الخيارات والمبادئ والوظائف والأهداف
- وضع المناهج التربوية والتعليمية، وصياغتها وفق التصورات الواسعة والمحددة النطاق
- تصميم البرامج التعليمية، وتجاوز كلاسيكيتها والتقليل من كثافة المقررات التي تحتويها المواد الدراسية .
- ضبط الطرائق التعليمية، وتجديدها وتجويدها من حيث بيداغوجياتها وتركيزها في جوانب الحوار والمشاركة الموجهة

- تطوير الوسائل التعليمية، والتحكم في استعمالاتها لتكون في مستوى تكنولوجيا التعليم وتساير الموجة المعلوماتية الحديثة

يبدوا أن التعليم الذي تتهيأ له مثل هذه الشروط والمعايير والمقومات، وتغذيه عزيمة الأمة بما تحمله من معان سامية، ومؤطر بخيارات وادوات متوافقة مع الأطر التي يتحرك في فلكها، لا محالة مع الوقت سيكون له شأن عظيم بالمجتمع العربي والإسلامي. كما يتحول في المستقبل القريب أو المتوسط المدى، الى مفتاح للتنمية والتطور والتقدم فيه. وهو المسعى الذي لا يتحقق إلا بإعطاء العرب والمسلمين **استراتيجية اصلاح التعليم** القيمة التي تستحقها فعلا في الوقت الراهن.

اتضح لنا مما سبق أن التعليم في العالم العربي والإسلامي، يحتاج الى مزيد من الإصلاح المخطط والمبني على التعاليم الدينية والقواعد العلمية، والدعم البشري والمالي والمادي، حتى يؤدي دوره على أفضل وجه، إضافة إلى تطوير استراتيجياته، وضمان استمراره ونموه، وتحقيق الأهداف التي وجد لأجلها حاضرا ومستقبلا.

ويؤكد أغلب أنصار الإتجاه الاصلاحي، أن جهد العرب والمسلمين يجب أن يتجه إلى بناء أمة موحدة ومتعلمة ومبدعة، ثم عملهم بالمقابل على بناء الأجزاء التي تتكون منها، وهي مجموعة البلدان التي تشكل العالم العربي والإسلامي.

لهذا الغرض جاءت إستراتيجية إصلاح التعليم، المستمدة من المدخل النظري الذي سبق و أن تناولنا تفاصيله بنوع من التحليل المختصر، متدرجة من الإطار الشامل إلى الفرعي، وهي معادلة متوازنة لا نتصور أنها تحدث خللا في مسارات التعليم، وفي ظلها سيكون متكيفا ومتفاعلا بعملياته مع واقعه الإجتماعي الذي يوجد فيه، وظرفه الزمني الذي يمر به، وبفعاليته سيمتلك العالم الإسلامي ومن داخله مجموعة أقطاره العربية والإسلامية، أسباب النهضة والتقدم في القرن الخامس عشر الهجري، مادام لمجتمع هذه الأمة ملمح تطمح من خلاله شعوبها مستقبلا إلى النهوض بواقعها وإصلاح أحوالها وخاصة التعليمية منها، ومواكبتها لتطورات ومستجدات العصر.

ثالثا: الملمح المستقبلي في إصلاح التعليم

حين النظر إلى المشكلات التي يعاني منها التعليم في البلاد العربية والإسلامية، ومنها على سبيل الذكر:

- تغلب عامل الكم على عامل الكيف في التعليم
- نقص الموارد المالية والمادية لتمويل التعليم
- عدم الاستيعاب الكامل للأطفال الذين وصلوا سن الالتحاق بمؤسسات التعليم
- عدم تناسب الزمني بين مراحل التعليم
- غموض أهداف المناهج التربوية الموجهة لبناء حياة التعليم
- كثافة البرامج الخاصة بالتعليم
- تغلب الجوانب النظرية على الجوانب التطبيقية في مختلف مدارس ومستويات التعليم
- غياب الانسجام بين حجم مدخلات ومخرجات التعليم
- ضآلة التجاوب والمردود الذي يقدمه التعليم
- عدم استيفاء الحاجات التنموية المنتظرة من التعليم...الخ

نحكم مباشرة على أن واقع التعليم في العالم العربي والإسلامي مثقل بالتحديات، مما عطلت من جهتها وظيفته التي كان من المفروض أن يؤديها طيلة فترات القرن الرابع عشر الهجري الماضي، والعشر السنوات الأولى من القرن الحالي.

لكن بالمقابل لو تتأمل مساعي العديد من البلدان العربية والإسلامية، وخاصة مع بداية القرن الخامس عشر الهجري، والتي بذلتها في إصلاح التعليم بمفهومه الواسع، ونذكر من بينها:

- التحكم نسبيا في الكم، والتركيز على النوعية في التعليم
- رفع حصص التدعيم المالي والمادي لكل أصناف التعليم
- المحافظة على الوحدة في الخيارات والمبادىء والأهداف، وتنويع العناصر الداخلة في بناء نظم التعليم
- الصياغة الجديدة للمناهج التربوية، المعدة لكل ما تتطلبه حياة التعليم
- التقليص من محتويات البرامج الدراسية، وتطوير الطرائق والوسائل المستعملة في التعليم
- التوفيق بين الجوانب النظرية والعملية التي تقوم عليها عمليات التعليم
- التجويد في مختلف المدخلات والعمليات التي يعتمد عليها التعليم

- التوزيع المتناسق والعمودي للحذوع والفروع والتخصصات عبر بعض مراحل التعليم
- تحسين اساليب التكوين والتوجيه والتقييم والتقويم في مجال التعليم
- الاهتمام بالبحث العلمي الذي يتابع ويدرس قضايا وظواهر التربية والتعليم...الخ

وغيرها من المبادرات التي لا يمكن التقليل من شانها، لانها في الحقيقة سمات واقعية تدل على وجود ملمح مستقبلي، تتطلع اليه مجموعة بلدان مجتمع الأمة الإسلامية.

وهي أعمال جادة تفسر توجيها نحو إصلاح التعليم وتطوير مكوناته، حتى يتسجيب لمطالب التنمية التي تقودها هذه الاقطار، مما دفع بالأستاذ **إبراهيم أحمد عمر** إلى القول...**أن أسلوب تحقيق التنمية الإسلامية، لابد ان يتوافق مع معطيات النسق الإسلامي مثل: التوازن، والإعتدال، والعلم، والعمل، والحلال،وترسيخ القيم الفاضلة...وكذلك الاصلاح ورفع مرتبة الإنسان (10)**، وبناء على هذه الأفكار ذات البعد الوسطي، يصبح فيمنا للإصلاح الذي يمس التعليم بالبلاد العربية والإسلامية، أنه لا يتحقق إلا في ظل المقومات او المعطيات التي إنطلقت منها التنمية المتوافقة مع تعاليم الإسلام ومبادئه.

إذا كان توجه مجتمعات العالم العربي والإسلامي في هذه الفترة الحاسمة من التاريخ الهجري، نحو المستقبل بكل ما يحمله من مفارقات ومقاربات، فانه يكون من الأمر الواقع كما يتصور الأستاذ **سيار الجميل...أن العرب والمسلمين هم في حاجة ماسة، قبل اي تجربة أو تجارب سياسية و تنظيماتية وايديولوجية...الى تربية وتعليم بالدرجة الأساس،من اجل استيعاب متغيرات الحاضر والمستقبل(11)** لأن الزمن القادم يتطلب من الجميع وقفة مع الذات، ومراجعة جذرية للاخطاء التي ارتكبت في الماضي القريب، ووضع استراتيجيات تمكن من الاستجابة للتحديات القائمة، وخصوصا في مجال التربية والتعليم والعمل على ادراكها وتجاوزها، وإحداث إنطلاقة صحيحة تعيد الأمة الإسلامية وأقطارها إلى صدارة الأمم من جديد.

لكي يلحق العرب والمسلمون بالركب الحضاري، ويرفعوا التحدي المسيطر على واقعهم المعاش، ويصلوا إلى حدود المستقبل ويكون لهم وزن في الفترات الباقية من القرن الخامس عشر الهجري، يكون من الأنجع لهم:

- الأخذ بتجارب الماضي الناجحة
- الاستغلال الجيد للتراث التراكمي الديني والعلمي والفني بشتى أنواعه، الذي خلفته أجيال السلف الصالح
- الاستثمار العقلاني للطاقات الخلاقة، التي يتوفر عليها الجيل الحالي والأجيال القادمة
- التركيز على التعاون والتضامن في جل مجالات الحياة
- الاهتمام بإصلاح التعليم، وتطوير أساليب التفكير والتعامل
- الانفتاح على التكنولوجيات والتقنيات المعلوماتية، وحضارات الأمم المجاورة...إلخ

وكلها خيارات استراتيجية، ودعوة للعرب والمسلمين للأخذ بها كأسباب قوية للنهوض مستقبلا اضافة الى ترتيب البيت وبناء أهم جزء منه وهو **التعليم**، لأنه كما يقول الأستاذ **محمد عبده يماني... إن التعليم والواقع التعليمي في العالم الاسلامي، يحتاجان إلى إصلاح جذري، ولابد من تحرك جاد وفاعل، يبدأ بإدراك حقيقة مهمة، هي أن التعليم في حاجة إلى تطوير فعال وتغيير جذري، يساهم في بناء الإنسان في البلاد العربية والاسلامية(12)**، وعلى هذا الأساس يبقى التعليم في مقدمة العوامل الحيوية التي تدخل في إعادة تشكيل الأمة الإسلامية. وبإصلاحه الذي لمسنا له ملمحا مستقبليا، سيتحقق بمشيئة الله وإرادة العرب والمسلمين الذين ينشدون الصلاح والتقدم والرفاه.

الهوامش:

1- سورة العلق- الآية رقم:1

2- محمد بهي الدين سالم: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير ط:1دار الشروق-القاهرة-مصر سنة: 1420 هـ- 1999م ص:98

3- محمد العربي الساحلي: نفسية التربية والتعليم من خلال فكر زعماء الإصلاح ط:1 دار صادر للطباعة-بيروت – لبنان سنة: 1416 هـ- 1995م ص: 46

4- محمد عبد العليم مرسي: المنظور الإسلامي للتنمية والتربية ط:1مكتبة العبيكان-الرياض- السعودية سنة: 1417هـ- 1996م ص ص: 92-93

5- آثار محمد البشير الإبراهيمي الجزء الثالث ط:1الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر سنة:1402 هـ- 1981م ص:117

6 - سورة آل عمران - الآية رقم 110

7 - محمود أحمد شوق: الإتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية في ضوء التوجيهات الإسلامية ط:1 دار الفكر العربي- القاهرة- مصر سنة:1418هـ - 1997م ص:314

8- رغلول راغب النجار: أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية ط:1 المعهد العالمي للفكر الإسلامي - القاهرة - مصر سنة:1410هـ- 1990م ص:173-174

9- مراجعة إستراتيجية لتطوير التربية العربية إعداد: عبد الله عبد الدائم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم -تونس سنة:1416هـ- 1995م ص:92

10- ابراهيم أحمد عمر: فلسفة التنمية- رؤية إسلامية ط:2

المعهد العالمي للفكر الإسلامي-القاهرة- مصر سنة: 1413هـ-1992م ص ص:55-56

11- سيار الجميل: العولمة والمستقبل، إستراتيجية تفكير من أجل العرب والمسلمين في القرن الحادي والعشرين ط:1 الأهلية للنشر والتوزيع-عمان- الأردن سنة: 1421هـ-2000م ص: 311

12- محمد عبده يماني: مستقبل التعليم في العالم الإسلامي مطبعة مركز صالح عبد الله كامل- جامعة الأزهر - القاهرة-مصر سنة: 1420هـ-1999م ص:35

13- أسعد السحمراني : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ط: 2 دار النفائس-بيروت- لبنان سنة : 1406هـ- 1986م ص:143

14- سورة التوبة- الآية رقم : 105.